رحلة الحياة

محمود شاكر

دار الوراق
للنشر والتوزيع



محمود شاكر

دار الوراق
للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

التوزيع في المملكة العربية السعودية

مكتبة الوراق

المملكة العربية السعودية - الرياض - الرمز ١١٤١١ - ص ب ٩

هاتف: ٤٥٥١١٤٢ - فاكس: ٤٥٣٠٠٧١

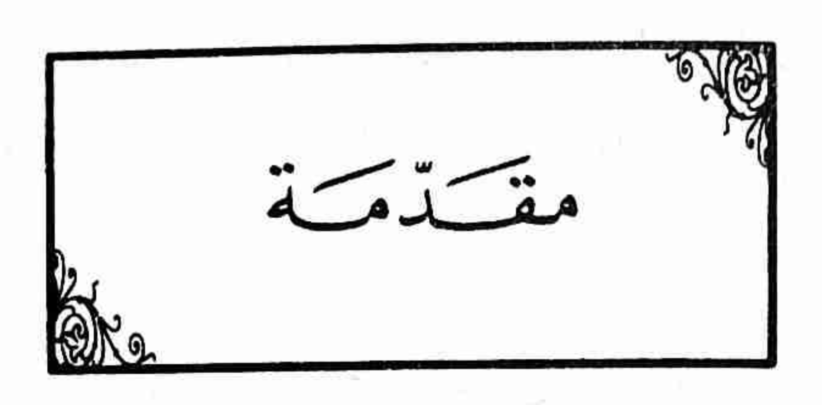
دار الوراق

للنشر والتوزيع

مكتب بيروت - هاتف: ٠٣/٤٦٣٩٢٠ - ص.ب: ١٤/٦٣٨٠

E. Mail: msibaie @hotmail.com

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: آية ٤٠].



مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الرسل والنبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإن رحلة الحياة قصيرة عند من فكّر واعتبر ويريد أن يستفيد من الوقت بالطاعة والإخلاص قبل انتهاء الرحلة، وهي رحلة طويلة عند من تلهّى واستهتر، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، لذا لا يبالي بالوقت، ولا يهتم بالصلاح.

وهي رحلة ابتلاءٍ واختبارٍ فمن أطاع وشكر، وامتثل ما أُمر به فقد فاز وظفر، ومن عصى وأنكر، وخالف ما أُمر به فقد ضلّ وخسر.

وهي رحلة تجارةٍ فمن أعطى واتقى وصدّق بالحسنى، وباع نفسه ابتغاء مرضاة الله، وقدّم ماله في سبيل الله، ومنع جوارحه من الحرام، وحال بين نفسه وبين هواها، فإن صفقته رابحة ربحاً جزيلاً لا يُعادله ربح، ولا يُساويه فوز وتلك هي الجنة، دار المتقين، أورثنا الله إياها. ومن بخل واستغنى وكذّب بالحسنى، وضنّ بنفسه، وشحّ

بماله، وترك جوارحه ترتع في الحرام، وأعطى نفسه هواها، فإن صفقته خاسرة خسارةً فادحةً لا تُعادلها خسارة، ولا يُساويها شقاء، ولا يُماثلها بلاء، فتلك جهنَّم أجارنا الله منها.

يبدأ الإنسان رحلته حين يُخلق، ويكون مرافقاً لأبويه وبقية أهله يتلقّى ويستمع، ويتعلّم ويُقلّد، وينتبه ويُفكّر حتى إذا أدرك وبلغ الحلم بدأت رحلته الخاصة، وأخذت الجوارح تعمل، فالعيون تُبصر، والآذان تسمع، والعقل يُفكّر، والنفس تهوى، والأيدي تمتدّ، والأرجل تمشي، والجلد يلمس، وما بقي من أعضاء كلها يتحرّك نحو هدفٍ له.

فإن كانت العيون تُبصر ما أباحه الله لها، وتتجنّب غير ذلك فهو الخير والأصل. وإن كانت الآذان تسمع الكلام الطيّب، وتبتعد عن سماع ما نهى الله عنه فإن ذلك لهو الأمر الحسن، والفعل المطلوب.

وإذا كان العقل يُفكّر في خلق السموات والأرض، وخلق المخلوقات كافّةً، وفيما ينفع الخلق وينشر الخير، وينفر من التفكير في الضرر والأذى كان ذلك ما أُمر به، وتلك هي الفطرة.

وإذا كانت النفس لا تميل إلى الشهرة، ولا تهوى

الشهوة، وترغب في الحق، وتبتعد عن الفتنة، ففي ذلك الخير، وهو من التقوى.

وإن كانت الأيدي لا تمتدّ إلى حقوق الآخرين، ولا تقترب من الأذى، ولا تمسّ ما حرّمه الله عليها، فبارك الله بها من أيدٍ ففيها الخير كله ـ إن شاء الله ـ.

وإذا كانت الأرجل لا تمشي إلى حرامٍ، ولا تسعى إلى فسادٍ، فصاحبها سعيد ـ بإذن الله ـ وهو من الصالحين.

وإذا كان الجلد لا يلمس إلا حلالاً، ولا يمسّه إلا حلال، ولا يستعمل صاحبه إلا طيّباً فذلك هو الخير، والناجي، والذي يشهد لصاحبه أنه كان عفيفاً.

من حافظ على هذه الصفات من البشر، وكان من الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويشهدون لمحمد بن عبدالله ﷺ، بالرسالة، ويُؤدّون حقوق الوالدين، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يوالون غير المؤمنين، ولا يذلّون أنفسهم للطغاة، ولا يحنون رؤوسهم للظالمين، ويُؤدّون ما عليهم، ويُسارعون في الخيرات كان من الصالحين، وكان جزاؤه مغفرةً من ربه وجناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين. وبذا يكون فوزه عظيماً، وأجره مضاعفاً، وتجارته رابحة ربحاً وفيراً، وقد أنجته من عذابٍ عظيمٍ.

ومن كان في دنياه غافلاً، همّه نفسه وما تشتهي، فلا يغضّ بصره عن حرامٍ، ولا يصمّ أذنه عن منكرٍ، يسبح بخياله وفكره دائماً في المحرّمات، وضرر الناس، ويُعطي نفسه هواها، وتمتدّ يداه إلى حقوق وأذى الآخرين، وتُسرع رجلاه إلى الفساد، ولا ألذّ شيءٍ عنده من مسّ الحرام، وكان غافلاً عن الله، فلا يخشاه، ولا يذكره إلا قليلاً، ولا يعرف إلا ما في دنياه، وما كان في مصلحته وهواه. ومن لا يعرف الله، لا يشهد برسالةٍ، ولا نبوةٍ، ولا يعرف يوم حسابٍ، ولا يُؤدّي حقوق والديه، ولا يأمر بمعروفٍ، ولا ينهى عن منكرٍ، ويوالي من يجد في موالاته مصلحةً له ولو كان من الكُفّار، وأعتى الطغاة، وأشدّ الناس ظلماً، ويذلّ نفسه لأي مُتكبّرٍ، ويحني رأسه لكل جبارٍ، لا يُفرّق بين الخير والشرّ، وهذا جزاؤه غضب من الله ولعنة، وقد بارت تجارته، وخسر خسراناً فادحاً، ذلك بما قدّمت يداه، وكان مصيره جهنم وبئس المصير، ونعوذ بالله من ذلك. هذا من انتهت رحلته وهو ظالم لنفسه، أما من رجع إلى نفسه وتاب وآمن وعمل صالحاً، واستغفر وأناب، فذلك يغفر الله له، إن شاء، ويبدّل سيئاته حسنات وكان الله غفوراً رحيماً.

نرجو من الله العزيز الرحيم، أن يرحمنا، وأن يهدينا الصراط المستقيم، ويُجيرنا من النار، ويرزقنا الجنة،

ويكسبنا رضاه، فهو خير مسؤولٍ، وخير مجيبٍ، عليه نتوكّل، وإليه نُنيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة ذي القعدة ١٤١٩هـ

محمود شاكر

خلق الله

قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يخلق السموات والأرض ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

وقضت حكمة الله أن يخلق في الأرض يابسها وفضائها ومائها مخلوقاتٍ. فخلق الجان من نار السموم ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[2]. وأعطاهم صفاتٍ خاصةٍ منها التكيّف بأشكالٍ مختلفةٍ، وإمكانية الوسوسة لمخلوقاتٍ أُخرى. وكلّفهم بمهمّة عبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[3]. ووعدهم بالحساب، ولتُجزى كل نفسٍ

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٧.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

بما تسعى، فمنهم من امتثل ما أُمر به، ومنهم من عصى، وفجر، وخالف، وهم الشياطين.

وقضت حكمة الله أن يخلق الحيوانات في البر، والبحر، والجو، بفصائل متنوعةٍ، وأشكالٍ مُتباينةٍ، وأحجام متغايرةٍ، وصفاتٍ مختلفةٍ، وطباعٍ متمايزةٍ، وهي مسخّرةٌ بأمر الله كبقية المخلوقات، بعضها ما يستفيد الإنسان منها بغذائه وأساسه، وبعضها لركوبه وارتحاله، وبعضها لنوره وحسابه، وبعضها لدفئه وأعماله كطاقةٍ، وبعضها ما تكون عبرةً له في خلقها ككبرها مثل الجمال، أو لضعفها كالذباب ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾[1]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[2].

وقضت حكمة الله أن يخلق الإنسان فأخبر ملائكته بذلك ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

خلق الله الإنسان الأول وهو آدم من صلصالٍ من حمإٍ

---

(١) سورة الغاشية: الآية ١٧.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٠.

مسنون ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾[١]. ولقد كرّم الله هذا المخلوق فوهبه العقل، وجعله أداةً للتفكير، ومجالاً للتعلّم، وعلّمه ما لم يُعلّم غيره من المخلوقات سواء أكانت هذه المخلوقات ملائكةً أم غيرهم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٢]. وبهذا امتاز آدم عن بقية المخلوقات بما علّمه الله.

وقضت حكمة الله أن يكون هذا التكريم للإنسان عملياً، تكريماً على كثيرٍ من المخلوقات ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[٣]. ومن هذا التكريم أنه سبحانه وتعالى قد أمر ملائكته بالسجود للإنسان الأول، وهو آدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[٤]. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

(١) سورة الحجر: الآية ٢٦.

(٢) سورة البقرة: الآيات ٣١ ـ ٣٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٣٤.

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾(1).

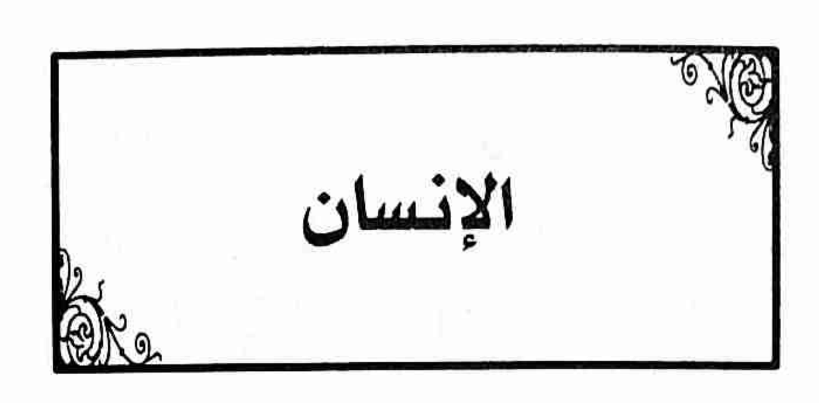
ومما أكرم الله هذا المخلوق الإنسان أن أسكنه الجنة، وخلق له زوجاً تعيش معه، تشاطره حياته ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾(2).



---

(1) سورة الحجر: الآيات ٢٨ ـ ٣٥.

(2) سورة البقرة: الآية ٣٥.



الإنسان

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ومنحه العقل، وعلّمه، وكرّمه على كثيرٍ من المخلوقات، وأمر الملائكة أن تسجد له تكريماً وتفضيلاً، ووهبه زوجاً أنيساً، وأمره بعبادة خالقه الذي أسبغ عليه النعم وفضّله على غيره، وفي الوقت نفسه نهاه عن بعض الأمور، وأعلمه أنه ما استقام على عبادة خالقه، وطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، فهو في الجنة ينعم بما سخّره الله له، وأنبأه أن الشيطان عدوّ له فليحذره، وليجتنبه، ولا يسمع إلى وسوسته.

غير أن الإنسان لم يلبث أن غوى فأصغى إلى وسوسة الشيطان، وأكل من الشجرة التي نهاه الله وزوجه أن يأكلا منها أو يذوقاها، فلما أكلا منها بدت لهما سوءاتهما، فشعرا بخطئهما ومخالفتهما لأمر ربهما، فأسرعا إلى ورق الجنة يأخذان منه ليسترا سوءاتهما، وبدآ يخصفان عليها من ذلك الورق ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا

وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

ومع مخالفة الإنسان لأمر ربه وعصيانه له إلا أن الرحمن الرحيم قد رحمه وعلمه أنه إن اعترف بذنبه، وتاب وأناب، واستغفر خالقه غفر له ما قد سلف، وتاب عليه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[2]. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

وقضت حكمة الله أن يخرج إبليس من الجنة مطروداً، مدحوراً، ملعوناً، لأنه أغوى آدم وزوجه، ولرفضه السجود لمن أمره الله أن يسجد له ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٩ ـ ٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾[1].

وقضت حكمة الله أن يُهبط آدم وزوجه من الجنة، ويُسكنهما الأرض وقد غفر لهما وتاب عليهما. ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2].

فإبليس طُرد من الجنة ومن رحمة الله، ولا أمل له بالعودة إليها لاستكباره وإصراره على الذنب، وإنما أنظره الله إلى يوم القيامة، ووُعد أن مصيره النار خالداً فيها هو ومن تبعه من الإنس والجن، وعمله في الدنيا الإغواء والإغراء.

وأما آدم فقد أُنزل من الجنة إلى الأرض، وسكن فيها إذ اعترف بذنبه واستغفر وأناب فتاب الله عليه، وأكرمه إذ أنزل عليه لباساً يُواري سوءاته ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3]. كما سخر له كثيراً من المخلوقات من نباتاتٍ وحيواناتٍ ومياهٍ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٢ ـ ١٨.
(٢) سورة الأعراف: الآيتان ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

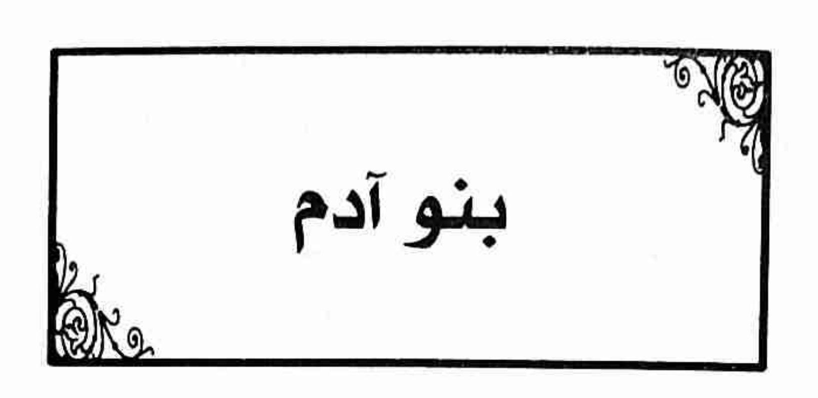
ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1] . ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[2] . ووعد آدم بالجنة هو ومن اتبع رضوان الله من ذريته، وأن يكونوا خالدين بالجنة ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ.

ورضوان الله هو اتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأولها عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالغيب، وعدم الاستماع إلى وسوسة الشيطان.

---

(١) سورة إبراهيم: الآيات ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) سورة النحل: الآيات ١٠ ـ ١٦.



بنو آدم

تناسلت الجنّ والإنس وتكاثرت، والذي يهمنا من نحن منهم من أبناء طبيعتنا من بني آدم فقد توزّعوا في الأصقاع، وانتشروا في الأقاليم، وتبلبلت الألسن، وتمايزت الطباع. ولما كان وجودهم في الدنيا اختباراً وابتلاءً كان لا بدّ من أن يُرسل الله لهم الرسل رحمةً منه ومِنّةً ليُبيّنوا لهم الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه والمنهج الذي يجب أن يتّبعوه، فكان لكل قوم هادٍ، يبعثه الله إليهم من بينهم وبلسانهم ليُبيّن لهم بصورةٍ واضحةٍ ما يدعوهم إليه وليعرفوا منه معرفة اليقين ما يريد ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].

كان كل نبيّ، يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، واجتناب الشرك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ . . .﴾[2]. ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾[١]. ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[٢]. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[٣]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[٤]. فكانت دعوة الأنبياء جميعاً واحدةً عامةً لا تختلف واحدة عن أخرى، ولا تتميّز دعوة عن سواها إلا باللغة التي جاءت بها، وهي لغة القوم الذين جاء إليهم نبيّهم منهم، إذ هو أحدهم اختاره الله من بينهم.

وقضت حكمة الله أن تكون في النهاية دعوة واحدة للناس كافةً تجمعهم، فهي إشارة إلى وحدة البشر، ومساواتهم، وتوجّههم، ولا بدّ من أن يكون نهجهم وشرعهم واحداً. وقضت حكمة الله أن يختار أحد العرب، وهو محمد بن عبدالله المطلبي القرشي، ويبعثه إلى البشر كافةً ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٥]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[٦]. ﴿وَمَآ

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٦٥.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٧٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٨٥.
(٤) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٥) سورة النساء: الآية ٧٩.
(٦) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

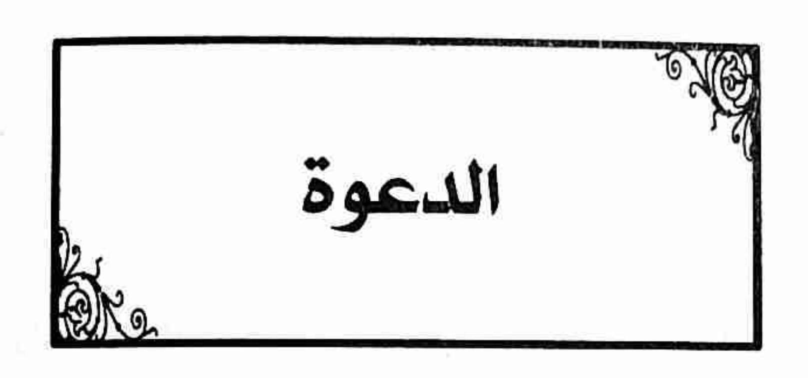
أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[١]. فكانت رسالته ﷺ للخلق جميعاً وللأمم كلهم دون استثناءٍ، وقد نسخت ما جاء قبلها وهيمنت عليه.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ . . .﴾[٢]. ولم يعد يستطع شعب من شعوب الأرض مهما كان منعزلاً في غابةٍ من الغابات، أو منزوياً في قفرٍ من الصحراء، أو متقوقعاً على نفسه في أرض الثلوج لا يمكنه أن يدّعي أن الرسالة لم تبلغه، أو غير مكلّفٍ بها ما دامت لغيره، فهي للخلق جميعاً وقد عمّت الثقلين، فبلغت كل شعبٍ أينما كان، ونرى أن كل من تقوقع على نفسه في مكانٍ أو انزوى في صقعٍ إنما قد فرّ من موطنه الأول بعد أن جاءته الدعوة وردّها، فحاربه من آمن بها فهرب أمامه حتى اختفى في موطن جديدٍ ناءٍ.



(١) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.



الدعوة

كانت دعوة الأنبياء والرسل جميعاً واحدةً، وكانت دعوة رسول الله، محمد بن عبدالله ﷺ، جامعةً لها، وخاتمةً لها، وناسخةً لها، وتقوم على عبادة الله وحده لا شريك له، والإحسان في العبادة: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وأن تُؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأن كل ما يتمّ من خيرٍ أو غيره فإنما هو بعلم الله وقضائه وقدره.

ولا يكفي أن تُؤمن بقلبك إذ لا بُدّ من عمل الجوارح تصديقاً لما في القلب، وتوكيداً لما في النفس، فتشهد باللسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتُؤدّي ما كتب عليك من صلاةٍ، وتدفع ما فُرض عليك من زكاةٍ، وتصوم رمضان، وتحجّ إلى بيت الله إن استطعت ذلك.

ويجب أن يكون ذلك بنيّةٍ صادقةٍ أن العمل كله لله،

مخلصاً له وحده، وليس لأحدٍ سواه شيء من هذا العمل أبداً.

هذا ما بين العبد وربه، مفروض على المخلوق، وواجب عليه امتثالاً لأمر خالقه.

وهناك واجبات اجتماعية أمر بها الخالق، ويُسأل عنها المخلوق يوم الحساب، ويُجزى عليها فترفع من درجاته أو تحطّ، وقد يُؤدي بعضها به إلى أسفل السافلين. وأعظمها طاعة الوالدين والإحسان إليهما ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1]. ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا . . .﴾[2]. ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾[3]. ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) سورة النساء: الآية ٣٦.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥١.
(٤) سورة لقمان: الآية ١٤.

ثم هناك صلة الرحم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[2]. ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾[3]. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾[4]. فقطع الأرحام من الإفساد في الأرض.

وهناك محبة المؤمنين عامةً، وبغض الكافرين عامة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[5]. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾[6]. وقال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»**[7]. وقال أيضاً: «من

---

(١) سورة النساء: الآية ١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٤) سورة محمد: الآية ٢٢.

(٥) سورة مريم: الآية ٩٦.

(٦) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٧) متفق عليه.

أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، وإن أفضلكم أحسنكم أخلاقاً، وإن من الإيمان حسن الخلق»[1].

ويجب أن يكون التعاون كاملاً بين المؤمنين **«مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»**[2]. وقال رسول الله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»**[3]، ثم شبّك بين أصابعه.

وعلى المسلم أن يكون حسن المعاملة مع أهله، مع جيرانه، مع أقرانه، مع الناس جميعاً، يعطي كل ذي حقٍّ حقّه، يكون كالميزان معتدلاً في حديثه، في قوله، في سيره و... إن هذا التصرّف هو من الدعوة، فهو إذ يُعطي صورةً حسنةً عن المسلمين إنما يكون داعيةً لدينه، وقد انتشر الإسلام في مناطق واسعةٍ من جنوب شرقي آسيا بالأخلاق، ومنها المعاملة التجارية التي كانت سائدةً في تلك الأيام بين جنوبي جزيرة العرب وتلك الأصقاع. وكل ما في الإسلام من

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي، وأحمد.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

توجيهات وتعليماتٍ تحثّ على حسن الخلق، وحسب التزام المسلم بدينه يكون حسن الخلق، فإذا ما أهمل قليلاً فقد شيئاً، وحسب إهماله يكون الفقدان، وبهذا يُقاس المرء المسلم. ولذا لا يصحّ أن يوصف امرؤ بخلقٍ معينٍ بانتمائه فقط بل بالتزامه.

وهناك أمور وتعليمات على المسلم أن لا يقترب منها.

ومنها: الظلم: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾[١]. ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[٢]. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[٣]. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ...﴾[٤]. ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٥]، ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[٦]. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ

---

(١) سورة الكهف: الآية ٨٧.

(٢) سورة النمل: الآية ١١.

(٣) سورة الطلاق: الآية ١.

(٤) سورة يونس: الآية ٥٤.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٣٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ٥٩.

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

ومن شرّ العيوب، وأقذر النقائض الكذب ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِى ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[4]. ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾[5].

ومنها: قول الزور، وهو كذب صارخ، وهو من الكبائر ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾[6]. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾[7].

ومنها: القول الفاحش.

ومنها: التجسس، والغيبة، والنميمة، والظن السيء، والسخرية من الآخرين، وإعطاء الألقاب البشعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن

---

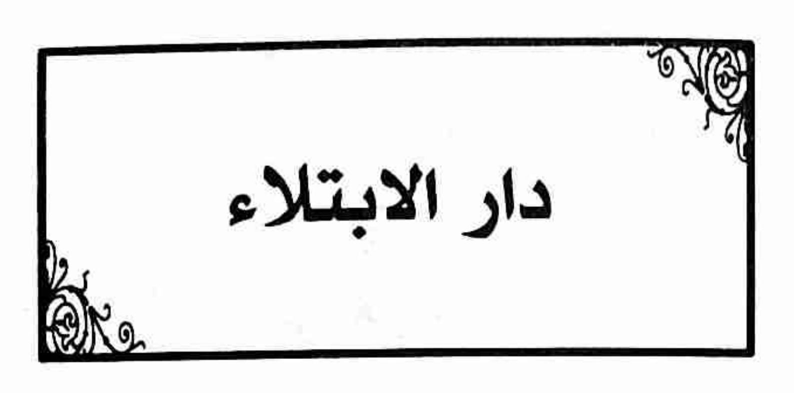
(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٧.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٨٦.
(٤) سورة النحل: الآية ١٠٥.
(٥) سورة الصف: الآية ٧.
(٦) سورة الحج: الآية ٣٠.
(٧) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

نِسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

ومنها: الحسد، والإساءة إلى الناس، وايذاء الآخرين، والاستكبار على خلق الله، والافتخار، والعصبيات، وازدراء الرجل غيره و...



(١) سورة الحجرات: الآيتان ١١ ـ ١٢.



دار الابتلاء

قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُهبط أصل الإنسان، وهو آدم، من الجنة إلى الأرض نتيجة مخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله وزوجه من الأكل منها، وكانت هذه المخالفة بإغراء الشيطان المطرود من الجنة. وقد استغفر آدم ربه، فتاب عليه، وأنزله إلى الأرض. وكانت الأرض مقرّ استقرار آدم ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]. وتناسل بنو آدم في الأرض وتكاثروا، فكانت حياتهم فيها، ومماتهم فيها، ومنها يخرجون ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2].

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُسبغ نعمه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ٢٤ ـ ٢٥.

ظاهرةً وباطنةً على الإنسان بدءاً من الخلق على أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[1]، إلى تفضيله على بقية المخلوقات ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[2] إلى هبة العقل الذي لم يهبه لمخلوقٍ آخر، وقد امتاز الإنسان به عن غيره من بقية المخلوقات، إلى شقّ السمع والبصر و.. إلى الرعاية والعناية والحفظ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾[3]. ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾[4]. ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[5]. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[6]. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[7]. إلى اللباس لتوارى به السوأة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[8]. إلى الرزق إذ

---

(١) سورة التين: الآية ٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٦٤.

(٤) سورة الطارق: الآية ٤.

(٥) سورة يوسف: الآية ٦٤.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٦١.

(٧) سورة هود: الآية ٥٧.

(٨) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

سخر للإنسان بعض الحيوانات فكانت رزقاً له يقتات بها كالأغنام والأبقار، والماعز، والإبل، والأسماك، والدواجن. كما أنزل الأمطار من السماء فشرب الإنسان من الماء وسقى، وأحيا الأرض فأنبتت من الثمار وحب الحصيد.

وأمر الله سبحانه وتعالى الإنسان أن يعترف بهذه النعم وأن يشكر المنعم بها، وشُكره هي عبادة الله وحده، والثناء عليه، والسير على منهجه الذي بعث به النبيين والرسل. وأن لا يستمع إلى غواية الشيطان الذي هو عدوّ مبين للإنسان ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1]. ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ...﴾[2].

وحتى ينشأ المرء على الإيمان تقع المسؤولية على أبويه فهما يُلقّنانه مبادىء الإيمان ويعملان على توجيهه وتربيته وتذكيره دائماً (الولد يولد على الفطرة فأبواه يُهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه) ويُحاسب الأبوان على ذلك. وإذا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

(٢) سورة فاطر: الآية ٦.

أدرك الولد فعليه أن يُفكر دائماً في نفسه، وفي الكون وما فيه، وقد حضّ الإسلام على هذا التفكير ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[1]. ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[2]. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

وقضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يُبيّن لخلقه أن هذه الحياة الدنيا قصيرة، وأنها لهو ولعب، وأنها تفاخر بالأموال والأولاد، وأنها متاع الغرور، وأنها زينة ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[4]. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[5]. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٤.
(٣) سورة ص: الآية ٢٩.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٣٢.

﴿ ٱلْغَرُورُ ﴾[1].

وحياة الفرد محدودة تبدأ بأن يكون جنيناً، ثم يولد فيستقبل الحياة فيكون طفلاً ضعيفاً، ثم يكون يافعاً فشاباً قوياً فكهلاً ثم يبدأ الهرم يدبّ بجسمه فيشيب ويضعف، وتنتهي حياته بالموت، وهي مدة قصيرة من الزمن إذ تتراوح بين الستين سنة والسبعين، وقد تتجاوز ذلك أو تقلَّ دون ذلك، عمر غير معروفٍ لا يعلمه إلا الله، وذلك ابتلاء للإنسان حيث لا يدري متى أجله، وليعمل لآخرته من بداية إدراكه، ذلك قضاء الله وقدره ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾[2].

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: نام رسول الله ﷺ، على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتّخذنا لك وطاء[3]، فقال: «**مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها**»[4].

وحياة الفرد، وعمره المحدود، يُدركه كل إنسانٍ

---

(١) سورة لقمان: الآية ٣٣.

(٢) سورة الروم: الآية ٥٤.

(٣) وطاءً: فراشاً.

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه.

بإحساسه بما سبقه من البشر ومما يرى أمامه من استقبال أطفالٍ وتشييع آخرين من مختلف الأعمار، وقد قال الشاعر قس بن ساعدة الأيادي:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ... ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغر
أيقنت أن لا محالة ... حيث صار القوم صائر

في هذه الحياة الدنيا يُختبر الإنسان ويبتلى، فقد رُزق الحياة، ومُنح تمام الخلق، ووُهب العقل، وسيقت إليه النعم، وأُعطي الخير، وقُدّم إليه الزوج ليتمّ سكنه النفسي، وتكون بينهما المودة والرحمة، وأوتي كل ما سأل ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

وخلق الله الإنس والجنّ ليعبدوه اعترافاً بما أنعم عليهم وتقديراً لدوام عطائه ورحمته بهم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[2].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.
(٢) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨.

والإنسان في هذه الحياة يختبر ويُبتلى فهل يشكر الله على نعمه أو يُنكر ويجحد ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1]. فمن اعترف بنعم الله وشكر زاده الله من فضله، ومن أنكر وكفر لقي العذاب الشديد ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾[2].

وممّا وعد الله عباده العابدين الحامدين الشاكرين جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ، وقد وصفها لهم وعرّفها ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾[3]. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾[4]. ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾[5].

وقضت حكمة الله عزّ وجلّ أن ينذر المنكرين

---

(١) سورة النمل: الآية ٤٠.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٤) سورة هود: الآية ١٠٨.

(٥) سورة محمد: الآية ٦.

الجاحدين، الكافرين، ويخبرهم أن مصيرهم النار إذا ما استمروا على إنكارهم، وبقوا على جحودهم، وتطاولوا في غيّهم، وتمادوا في ظلمهم، واستحلّوا الحرمات، واستهانوا بالفساد، واستخفّوا بالإيذاء ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾[1]. وهذا الانذار كمال العدل ليعرفوا مصيرهم إذا بقوا على كفرهم وعنادهم، فلعل ذلك الانذار يخيفهم فيعودون إلى ربهم ويستغفرونه. ولكن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾[2]. فالناس في مركب هذه الرحلة في الحياة الدنيا أنواع منهم:

١ ـ المؤمنون:

وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وطبّقوا ما أمر الله به قولاً وعملاً صادقين، مخلصين لله بكل عملٍ يقومون به، وكل قولٍ يقولونه، لا يُشركون به أحداً، لا

---

(١) سورة الحج: الآيات ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٦ ـ ٧.

تتجاوز نيّاتهم رضاء الله وطاعته.

ويتمثَّلون الإسلام بأخلاقهم وسلوكهم، فيُعطون صورةً طيبةً عن الإنسان المسلم في كل تصرّفٍ لهم، سواء أكان الإنسان مع نفسه أم مع أهله أم في مجتمعه أم مع أعدائه.

وهؤلاء المؤمنون لهم جنّات يُرزقون فيها بغير حساب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾[1].

وفي الجنة كل ما كانوا يشتهون في الحياة الدنيا بل ما يحلمون به، وفيها ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ في الدنيا، ونُريد أن نتكلّم عما نعرفه في الحياة الدنيا حتى نقرّبه للذهن ونحسّه بالفكر، وإن كان أفضل بما لا يُقاس.

فالمؤمنون في الجنات قبل كل شيء على الأرائك ينظرون ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾[2]. وبين أيديهم من يأتيهم بما يُريدون

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) سورة الإنسان: الآيات ١٢ ـ ١٥.

كالخدم مع فارق التشبيه ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾[1]. هذا إضافةً إلى النساء، وأي نساء: إنهن في مقتبل العمر، في غاية الجمال، في سنٍّ واحدةٍ، لم يعرفهن إنس ولا جان، كأنهنّ خرجن إلى الحياة لأول مرةٍ فمثلهنّ كمثل الدرّ خرج من الصدف لأول مـــرة ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾[2]. ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[3]. ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[4]. ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾

---

(١) سورة الإنسان: الآيات ١٩ ـ ٢٢.

(٢) سورة النبأ: الآيات ٣١ ـ ٣٦.

(٣) سورة الواقعة: الآيات ٢٢ ـ ٢٤.

(٤) سورة الرحمن: الآيات ٥٦ ـ ٦٠.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾[1]. ونساء الجنّة طاهراتٍ دائماً لا يعرفن الحيض الذي يأتي المرأة في الدنيا.

وهذا غاية ما يتمنّى الإنسان في الدنيا: عزّ، ورزق، وجنس، وهو في الآخرة على مستوى أحسن ما يتصوّره المرء، وهو الفوز العظيم، وقد وُعد به المتقون، فمن أراد نواله فما عليه إلا تقوى الله، فيا له من فوز، فهو دائم ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء الله، والمؤمن مخلّد في هذا النعيم. فلمثل هذا فليعمل العاملون. وهنيئاً للمؤمنين بما ينتظرهم من سعادةٍ، وبما ينتظرون من جزاءٍ.

ويحبّ المؤمنون الخير للناس جميعاً لذا يعملون على دعوتهم إلى الإسلام، ويبذلون جهدهم لذلك، وإن لم يفعلوا ذلك حملوا الظلم ظلمين: فالأول: أنهم لم يحملوا الإسلام بحق بل حُملوا عليه، والثاني: أنهم لم يُبلّغوا الإسلام إلى الناس، وهم بأشدّ الحاجة إليه.

والإيمان هو التصديق الكامل الذي يملأ القلب طمأنينةً والنفس راحةً وسكينةً، وهو الانقياد التام لكل ما يأمر به الله.

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ٧٢ ـ ٧٦.

ولا ينتشر الأمن إلا مع الإيمان، ولا تسود العدالة إلا بالإيمان، وإن أشدّ عقوبات الدنيا، وأكثر تهديدات الأرض لا تستطيع عمل ما يفعله الإيمان، ويمكن للإنسان أن يتهرّب من البشر، ويخفي ما يرتكب عن الخلق، ولكن لا يستطيع أن يخفي ذلك على الخالق، لذا يخشاه، ويخاف يوم الحساب. لهذا تستقيم الحياة مع الإيمان، وتنتظم الأمور فالذين يؤمنون باليوم الآخر يعلمون أن الله مطّلع على سرائرهم وكل حركةٍ يقومون فيعملون على الابتعاد عن كل مخالفةٍ.

ولا يستعين المؤمنون بعدوٍّ أبداً، ولا يطلبون من عدوٍّ مطلباً، ولا يرجون من خصمٍ دعماً، لذا كان المؤمنون هدف سهام الأعداء، ويتركّز الهجوم عليهم من مختلف الوسائل.

٢ ـ الكافرون:

وهم الذين نسوا الله فنسيهم، إذ لا يُؤمنون بالله، ولا يعرفون من دنياهم إلا مصالحهم وشهواتهم حيث طغت على حياتهم كلها، ويتصوّرون أن الحياة تسير بشكلٍ ماديٍّ، وأن الأيام تقضي عليهم بمرورها، وليس بعد الموت من أمر ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا

يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾[2].

إنَّ الكفار خالدين في نار جهنم، لا يخفف عنهم العذاب أبداً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[3]. فتعساً لهم بما قدّمت أيديهم. وأجارنا الله من النار التي أُعدّت للكافرين.

٣ ـ المنافقون:

وهم الذين أظهروا الإسلام وبقيت قلوبهم على إنكارها وجحودها أي آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وهم يحسبون أن ذلك مقدرةً ودهاءً حيث حافظوا على بقائهم مع المسلمين،

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٤.
(٢) سورة الجاثية: الآيات ٣١ ـ ٣٥.
(٣) سورة البقرة: الآيتان ١٦١ ـ ١٦٢.

وفي مجتمعهم، وفي الوقت نفسه أمنوا الكفار، ولم يخشوهم فيما لو ظفروا ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾[1]. كأنهم لم يعلموا أن الله يعلم ما يُسرون وما يُعلنون ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾[2]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3]. ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[4]. فكل إنسانٍ عليه حفظة وكتبة. والله يعلم السّر وأخفى.

ويظنّ المنافقون أنهم يتميّزون عن غيرهم بالمهارة فإذا التقوا بالمؤمنين أظهروا الإيمان، وإذا اجتمعوا بالكفار أبدوا السخرية من المؤمنين، ووصفوهم بالسذاجة والبساطة وأنهم يسخرون منهم، ويضحكون عليهم بادّعائهم أنهم

---

(١) سورة النساء: الآيتان ١٤٠ ـ ١٤١.
(٢) سورة التوبة: الآية ٧٨.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٨٠.
(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٩.

معهم على الإيمان فيصدقون لجهلهم ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾[1].

والمنافقون هم أشدّ خطراً على المؤمنين من الكافرين، فالكفّار معروفون، وعداوتهم معروفة، ولا يُرتجى منهم خير، بل لا يُتوقّع منهم إلا الشرّ. والمنافقون لا يظهرون كفرهم، ولا يُبدون عداوتهم، ويُخفون واقعهم، ومن هنا يأتي خطرهم، وهم في الدرك الأسفل من النار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾[2]. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[3].

وإذا وجد في المجتمع الإسلامي نماذج من هؤلاء صعُب عليهم أن يعلنوا الكفر، وفي الوقت نفسه شقّ عليهم

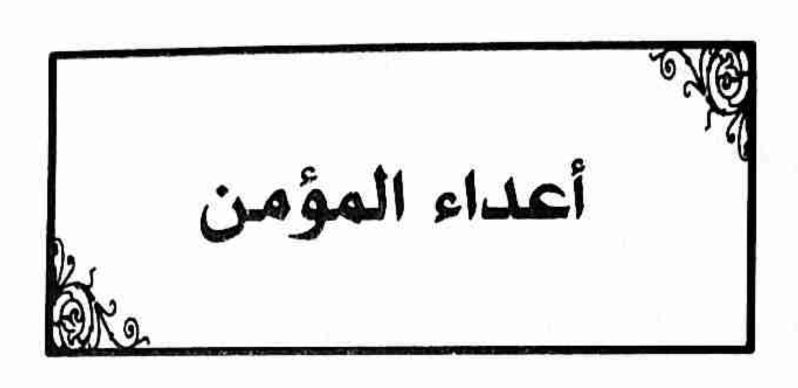
---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٤ ـ ١٦.
(٢) سورة النساء: الآيتان ١٤٢ ـ ١٤٣.
(٣) سورة النساء: الآية ١٤٥.

أن ينخرطوا في مجتمعهم ويسايروه على إيمانه، لذا فهم ينحرفون عنه، ويُسمّون أنفسهم «علمانيون» أو «تقدميون» و...

٤ ـ ويضاف إلى هذه الأصناف المشركون الذين يعبدون آلـهـةً مـن دون الله كـالـهـنـدوس، والـبـوذيـيـن، والكونفوشيين، والشنتويين، واليزديين عبدة النار، والشيطان وبقية الوثنيين الموزّعين في المناطق المعزولة والنائية.





أعداء المؤمن

إن للإنسان أعداءً ثلاثةً تعمل على إغرائه، وتسعى لإغوائه، وتبذل جهدها لفتنته، وهي موجّهة سهامها إليه منذ أن خلق الله البشر حتى قيام الساعة، وقد نبّه الله سبحانه وتعالى الإنسان إليها، وحذّره منها، فمن استمع إلى كلام الله والتزم، واتبع ما أمر، واجتنب ما نهى، وحذر الغواية، وخشي الحساب، فقد نال ما تمنّى، ووصل إلى ما سعى، ففاز الفوز العظيم، وسكن جنّات النعيم، وعاش فيها خالداً مخلّداً. وأما من أعرض ونأى، ولم يُبال بما يسمع، ولم يخش حساباً، ولم يسر إلا حسب ما يهوى، ولم يُفكّر إلا بالشهوة الموقّتة، والغنم المادي الحاضر، والربح السريع الآني، والشهرة الزائفة، فقد خسر خسراناً مبيناً، وأُلقي في جهنم وبقي خالداً مخلّداً فيها. وأعداء الإنسان هم:

١ - الشيطان:

كان إبليس في الجنة فاستكبر، ورفض أمر الله إذ أبى

السجود لآدم، فطُرد من الجنة، ولُعن، فطلب من ربّه إنظاره في الحياة إلى يوم الدين، فأمهله، فقال لخالقه ما دمت أنا قد غويت، وأُخرجت من الجنّة فسأعمل لغواية البشر أجمعين ما داموا من ذرية آدم الذي أصابني ما أصابني بسببه، فأخبره ربُّه أن العباد المتقين ليس للشيطان عليهم سلطان، وأما الغاوين فسيكونون والشيطان في جهنم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[1]. فالشيطان عدوّ دائم لبني آدم، يوسوس له، فما من عمل خيرٍ إلا ويحاول أن يدفعه

---

(١) سورة الحجر: الآيات ٢٨ ـ ٤٤.

عنه، وما من سوءٍ من غوايةٍ أو شهوةٍ إلا ويحاول أن يدفعه إليه ويجرّه نحوه. فإذا كان الإنسان من أهل الخير والصلاح وانتبه إلى وسوسة الشيطان فذكر الله واستعاذ به من الشيطان الرجيم، فإنه سينجو من الشيطان، ويتغلّب عليه ـ بإذن الله ـ. وأما إذا كان من أهل الغواية استمع إلى الشيطان، واندفع معه، وأقدم على الفاحشة أو الجريمة، وبذا يفرح الشيطان إذ تمكّن من الإغواء، وحصل على ما يريد، وحقّق ما يسعى إليه، وأكثر ما يكون فرحه وسروره فيما إذا استطاع أن يغوي صالحاً، أو يُغري فتىً في أول نشأته فيجعله يبدأ حياته بالضلال وعمل المنكر، ومتى وضع رجله في الحرام، ولم يجد من ينصحه أو يردعه استمرأ المنكر، واستعذب الحرام، وانقاد لنفسه، فأعطاها مُناها، وغاصت قدمه في الوحل، وسار على هذا الدرب، وحافظ عليه حيث أن الشيطان دائماً يُجمّل له السوء ويُحسّنه، إذ يقول له: هذا هو طريق الرجال الذين يريدون أن يحققوا أمانيهم، ويصلوا إلى أهدافهم. ويكون الشيطان في غاية الفرح إذ أغوى بعضاً من بني آدم، وأدّى مهمته من الغواية، وانتصر على خصمه الإنسان، وألقاه معه في نار جهنم.

٢ ـ النفس البشرية:

يغلب عنصر الخير على النفس البشرية فإذا ما

زكّاها صاحبها فأمسك بزمامها، ومنعها عن هواها فقد ربح وفاز، وإذا ما أفلت لها العنان، وأعطاها سؤلها، وقدّم لها كل ما تشتهي فقد خسر وخاب ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[١].

فالنفس مع ما فطرت على خيرٍ فإنها تحب الشهرة، وتسعى لها، وترغب في المكانة، وتعمل لها، وتجد المبرّرات بما تدّعي لذاتها من إمكاناتٍ وطاقاتٍ، وما يمكن أن تُقدّمه للمجتمع فيما لو آل إليها أمر، وهذا ما يقوله الإنسان عن نفسه، ولو تمّ له ما أراد ربما لم يصل إلى مستوى من سبقه، وقد يسقط ويُسيء، لأنه لا يعرف نفسه بل يعرفه الآخرون، لذا كانت القاعدة «طالب الولاية لا يُولّى».

وتميل النفس البشرية إلى المال، وتبذل جهدها في الحصول عليه، وتعطيه الأولوية، بل وتحلم به، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾[٢]. وتدّعي النفس أنها لو ملكت ما تُريد لأعطت، وتصدّقت، ومنحت، ووهبت، ولفعلت الكثير من أعمال الخير، وما هذا إلا ادّعاء لتبرير هواها،

---

(١) سورة الشمس: الآيات ٧ ـ ١٠.

(٢) سورة العاديات: الآية ٨.

وتحقيق مبتغاها، ولو تمّ لها ما أرادت ما فعلت شيئاً مما كانت تقوله بل لبخلت ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[1].

وتندفع النفس البشرية وراء الشهوة، وتحرّكها غرائزها البهيمية حتى لم تعد ترى سوى الجنس، ولا تُفكّر إلا به حتى تتعطّل أعمالها، وتتوقّف طاقاتها، وربما يؤدّي بها ذلك إلى الإفساد، ونشر الفاحشة، وارتكاب الإثم، وهذا ما يحمل إلى النار، أجارنا الله منها.

فالنفس البشرية عدوّة لصاحبها فإذا أعطاها ما تشتهي دفعته إلى المهالك في الحياة الدنيا، وأوصلته في الآخرة إلى السعير. وإذا ما نهاها عن هواها، وكبح جماحها، وقادها إلى سبل الرشد رفعته في الدنيا، وكان في الآخرة من الفائزين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2]. فالنفوس المريضة تحبّ

(١) سورة التوبة: الآيات ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) سورة النازعات: الآيات ٣٧ ـ ٤١.

العاجلة فتسعى لتحصل في الدنيا على شهواتها، وتنال رغباتها، وتنسى أن ما في الآخرة أفضل بكثيرٍ، وهو دائم باقٍ، على حين أن ما في الدنيا زائل فانٍ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[1].

وتدفع النفس صاحبها إلى المهالك باسم الحصول على الشهوات ونيل الطيّبات فينساق وراءها لا يُبالي أي سبيل يسلك ولا أي طريقٍ يمشي، لا يهتم حصل على ما يبغي عن طريق الحلال أو الحرام فالأمر عنده سواء، المهم أن يحصل على ما يريد، ويتمّ له ما تتوق نفسه إليه، ويحقّق شهوته بأية وسيلةٍ كانت، وما يصل إليه من مكانةٍ، وما يحصل عليه من مالٍ، وما يحققه من شهوةٍ إنما هو لمدةٍ قصيرةٍ وتنقضي، وتفنى وتزول، وتودي به إلى أسوأ العواقب، وهل هناك عاقبة أسوأ من السعير يعيش في لظاها خالداً مخلّداً ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك. وكان بإمكانه أن يصل إلى ما يريد بل ما أرادته نفسه عن طريق الحلال، فينال مبتغاه وينجو من عذاب الحريق.

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٨ ـ ٢٠.

ولكن لا يُفكّر بالعاقبة ولا ينظر إلى النتيجة.

ومن قال أن الطيّبات مُحرمة عن المؤمن في الحياة الدنيا؟ غير أنه يحصل عليها بطريق الحلال الذي أمر الله به، فهو بهذا يحصل في الدنيا على ما يحصل عليه الإنسان الآخر الضائع، ولكن في الآخرة يحصل على أفضل مما كان يتمنّاه في الدنيا بملايين المرات بل بما لا يُقارن، وهي خالصة له دون غيره، إضافةً إلى أنه يعيش في جنات النعيم في أسعد مستقرٍّ، وأهنأ إقامةٍ جزاء من ربك عطاءً حساباً. هذا إلى جانب أنه كان في الدنيا موضع تقدير واحترام لما كان عليه من أخلاقٍ طيبةٍ. فهو بهذا قد حاز على سعادة الدارين، على حين حاز من أعطى نفسه هواها على كراهية الناس في الدنيا، وكان حصب جهنم في الآخرة، نعوذ بالله من ذلك ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[1].

فالنفس البشرية عدوّة لصاحبها حين تلحّ عليه للحصول على متاع الدنيا من شهوةٍ، ومكانةٍ، ومالٍ بالوسائل التي حرّمها الله.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

٣ ـ أعداء الإيمان:

وتأتي عداوة هؤلاء في أنهم يريدون الفساد في الأرض كما تشتهي أنفسهم وكما يشاءون، فيهتكون أعراض الناس حسب شهواتهم، ويرتعون فيها كما يحبون، ويأكلون الأموال بالباطل كما يرغبون، ويظلمون الآخرين حسب أهوائهم، ولما كان الإسلام يمنعهم من ذلك فهم أعداؤه، وأعداء أهله، يحاربونهم، ويُوجّهون سهامهم عليهم، سهاماً مسمومةً من مختلف الأنواع، وعلى مختلف الجبهات، وفي كل المجالات. ويحاول الأعداء التسلّط على ديار الإسلام فلا يجدون حراساً لها سوى المؤمنين، ويريدون التسلّل إليها فلا يرون سوى المؤمنين أيقاظاً. ويعمل الأعداء على إيجاد أعوانٍ لهم بين الشعوب، إذ بالمؤمنين حذرين، وللآخرين منبّهين، ولحرب الأعداء داعين، يتقدّمون الجموع، ويحملون السلاح، ويُعلنون الجهاد، ويسعون لتحقيق الغلبة، فإذا بالمسلمين قوة لا تُبارى، بل لا يمكن الوقوف أمام اندفاعهم أو الثبات أمام جهادهم. فما حيلة أعداء الإيمان مع هؤلاء المؤمنين؟ ليس لديهم سوى الفتنة والإغواء. إن داوعي الفتنة والغواية ثلاثة أمورٍ ـ كما ذكرنا ـ هي المركز، والمال، والجنس.

أ ـ المركز:

يُعرض على الإنسان المنصب الرفيع، ذو المكانة

العالية التي ترفع صاحبها، والشهرة المعروفة التي تُظهر أهلها، والدخل الوفير الذي يُحقّق لمالكه كل ما يرغب ويشتهي، وكل ما يحلم به ويتمنّى، غير أن المؤمن يحذر السقطات، ويخشى النتائج، وينتبه إلى المكر، ويخاف الخصم، ويعرف أن الأمر قد أتى من غير المؤمنين فهو شَرَكٌ قد نُصب له لغايةٍ في نفس الماكرين يُريدون تنفيذ مُخططٍ، أو التخطيط للعبةٍ يُقصد منها الإيقاع بالمؤمنين، وقد حماهم الله من الفتنة، وأبعدهم عن الشبهة.

فالذين لا يهتمون بالحياة الدنيا، ولا تغرّهم زينتها يستعلون بإيمانهم، ويعتذرون عما عُرض عليهم، ويُثبتون للعالم أنهم غير مُغفّلين، فلا تنطلي عليهم اللعبة، وهم بإيمانهم أعلى وأرفع مما قُدّم لهم. وأما من يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً، فيقبلون ما عُرض بلهفةٍ وذلٍّ، ويشكرون من قدّم لهم ذلك، ويثنون عليه، ويبجّلونه، ويصبح هذا ديدنهم، وهذه وظيفتهم، ويشعرون - ضعةً وذلّةً - أنهم دون ما أُعطوا، فقد رُفعوا - حسب تقريرهم - لذا أصبحوا عبيداً لمن رفعهم يُقدّمون له الطاعة - صباحاً مساءً -، ولا تكفّ ألسنتهم عن الثناء عليه في كل محفلٍ وفي كل مجتمع.

ويجد هؤلاء المرضى المبرّرات لأنفسهم إذ يقولون: إنّ استلامي هذا المنصب خير من أن أتركه لآخر لا يعرف

إلا مصلحته، ولا يرقب في مؤمنٍ إلاً ولا ذمّة، وإن هذا الإحجام قد جعل الشواغر تمتلىء بمن نرى. وعندما يتسلّم هذا المريض المركز نجده لا يتعدّى أن يكون عبداً لسيّده يُنفّذ ما يُؤمر به بل بما يراه رغبةً ممن سلّمه.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن سيّده يكفيه أن يُعلن ضمناً للجميع أنَّ هؤلاء الذين يدّعون المثاليات لا يعرفون إلا مصالحهم ولا يسعون إلا وراء أهوائهم. والمشكلة إن كان صاحب الهوى هذا ممن يدّعي العلم، أو يُعرف بذلك حيث تسقط تلك الهالات، وهذا ما يعمل له أعداء الإيمان. ومن المؤسف أن أمثال هؤلاء هم الذين يظهرون على الساحة، ويُلمّعون في كل صقع.

ب ـ المال:

يُعرض على الإنسان مبلغ ضخم مقابل عملٍ يسير في سبيل شرائه وإسقاط بعض الهالات أو التجمعات التي ينتمي إليها. فإن كان من الذين في قلوبهم مرض، أو الذين يعملون لذاتهم، ظنّ أن هذا العرض نتيجة كفاءاته العالية وإمكاناته النادرة، أو عرف أن ذلك شراءً له، وكسبه إلى جهةٍ، وفي سبيل تركه لجماعةٍ فإن كان من أصحاب المصالح الخاصة، أو يسعى وراء منافعه تخلّى عن مبدئه الذي يحمله، وأسرع وراء من عرض عليه المال، وسار في

ركابه، وأخذ يدعو إليه، ويثني عليه، ونسي ما كان يدعو إليه أمس، وأخذ أجره العاجل في الدنيا، وينتظره الحساب في الآخرة.

وأما إن كان من أصحاب الدين، وذوي المبادىء سما بإيمانه، وأعرض عما قُدّم له، وضرب صفحاً عنه، وعرف هدف الأعداء، وابتعد عن الغنم العاجل، ورجا الأجر من الله، فحصل على الربح الوافر، ووُفّي له حسابه أضعاف ما ينتظر، ونال جزاءه يوم تُوفّى كل نفسٍ ما كسبت، وهم لا يظلمون، فهنيئاً له بما نال.

والمال يُبهر العيون، ويأخذ بمجامع القلوب ذلك أن الذين تفتنهم الحياة الدنيا يرون فيه عصب الحياة إذ فيه وسيلة الزينة، ومجال التملّك، وطريق السعادة، وسبيل الرفعة، وأداة النفوذ، وبه تحصل الشهرة، وبواسطته تُنال الشهوة، لذا يُسعى إليه، ويُتنافس عليه، ويُقاتل من أجله. فمن أخذه بحقٍّ، وأنفقه بحقٍّ، وسعى فيه بخير فذاك السعيد، ومن حصل عليه بحرام، وأنفقه على حرام، وسعى فيه بشرٍّ، فذاك الشقي. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾[1].

---

(1) سورة الكهف: الآيتان ٧ ـ ٨.

والمال مطلب الرجال والنساء على حدٍّ سواء، بل المرأة أكثر إلحاحاً عليه وأشدّ اندفاعاً إليه، وأسرع سعياً نحوه، وأرخص نفساً له و. . . وما من امرأةٍ إلا وتلحّ دائماً على الزينة والذهب والألماس، وتطالب بالدار الواسعة، والأثاث الفاخر. والحديث بينهن لا يتعدّى ذاك.

قالت إحداهن أقامت فلانة داراً تأخذ بالعقول، وتملك الألباب، وتُبهر الأبصار، وما إن انتهى البناء، ومُدّ الأثاث العجيب حتى أُصيبت المرأة بالسرطان بالعظام، وكانت القاضية، وما سكنت بما شادت، ولا سعدت بما صرفت. . . ومع ذلك لم تكن بتلك الحادثة عبرة. كل الضائعين في دنياهم يريدون الارتفاع والعلو، ويسعون إلى الشهوة وإلى التسلط. ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

ج ـ الجنس:

يختلف الناس في خضوعهم لأثرٍ مُعيّنٍ أكثر من غيره، فمنهم من يخضع لسيطرة المال، ومنهم من لا يستطيع مقاومة حبّ الشهرة والظهور، ومنهم من ينحني أمام المنصب، ولكن نسبة من يسقط أمام الجنس أكبر

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٣.

من نسبة أية مغريات أخرى، كما أن الصبر على هذه الغواية أكبر من الصبر على غيرها من الإغراءات والإغواء. وربما نأخذ إشاراتٍ من هذا من قصة يوسف، عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾[2]. ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[3].

وكذلك فإن غواية الجنس أسوأ أنواع الغوايات، وأشدّها أثراً، وأسرعها استجابةً، فالمنصب يُفكّر الإنسان فيه بعد عرضه، والمال يبحث به بعد طرحه، أما الجنس فلا مجال للنظر فيه إذ تتجاوب الجوارح، وتضطرب الأعصاب، ويتوقّف التفكير إلا في الشهوة، وكلها تدعو صاحبها للرضوخ والسقوط، فالكلام يغوي، والمفاتن تُغري، والعَرض يُعمي، وصاحبة الشأن مُدرّبة ناجحة،

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢) سورة يوسف: الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) سورة يوسف: الآية ٥٣.

وفاتنة ساحرة، إغواؤها يرفعها، وإغراؤها يُعليها، ونجاحها يدنيها، وفشلها يُبعدها، وتقصيرها يفقدها الكثير حسبما تتأمّل وتحلم، لذا تبذل جهدها، وتستغلّ مفاتنها كلها و. . . وبعد ذلك يمدّها الشيطان بما لديه من أساليب. فمن أُفلت من هذا الفخّ فقد فاز، ومن وقع سقط، والويل له كل الويل لما ينتظره.

هذه هي أهم أساليب الغواية التي يُعرضها شياطين الإنس والجنّ على الإنسان المؤمن كي يحرفوه عن مبدئه فينالوا منه، ويغرونه كي يقع فيُسخّرونه لتحقيق أغراضهم، ويجعلونه مطيةً لوصولهم إلى مآربهم، وفي الوقت نفسه فإن سقوط المؤمن يُمهّد الطرق لأعدائه إذ يصيدون بسقوط واحدٍ جماعاتٍ يُمثّلهم، لذا تُصوّب سهام الأعداء كلها نحو المؤمنين دعائياً، واقتصادياً، وعسكرياً، وتجتمع نحو هدفٍ واحدٍ هو الإيمان، ولما لم تكن من مصلحة الأعداء إعلان ذلك صراحةً فتلتقي كلمة المؤمنين، وتتوحّد صفوفهم، وهو الأصل، لذا فهم يُعلنون حربهم على فئاتٍ معينةٍ بعد أن يّوجّهوا دعايتهم ضدّها، ووسائل إعلامهم كلها عليها، ويُقدّمون تمثيلياتٍ تُضلّل المشاهدين، وتُعمّي على مخططاتهم، وتُخفي أغراضهم، ويُؤدّيها أعوانهم الذين هم بالأصل يجب أن يحموا المؤمنين.

ولكن ما السبب في توجيه السهام على المؤمنين:

١ ـ الحسد:

المؤمن إنسان مستقيم ذو مكانةٍ مرموقةٍ في بيئته إذا تكلّم سُمع منه، وإذا أمر أُطيع، وإذا طلب أُعطي، وإذا خطب زُوّج، معروف في مجتمعه، يحبّه الصغير والكبير، على حين أن غير المؤمن لا مكانة له في الوسط الذي يعيش فيه، لا يوثق بوعده إن وعد، ولا يُصدق إذا تحدّث، وإذا طلب رُفض طلبه، لا يُبالي به من حوله، لا يفتقد إن غاب، ولا يُهتمّ به إذا حضر.

وهذا ما يجعل غير المؤمنين يحسدون كل مؤمنٍ بل يُحاولون الطعن به، فيشيعون الشائعات ضده، ويفترون الكذب عليه.

٢ ـ الكيد:

لا يرضى المؤمن بالفساد، ويحبّ النظام، ويكره الفوضى، ويعمل بالطاعة، ويسعى للخير، ويُحارب السوء، ويرى الاستقامة في كل شيءٍ، وهذا ما يُنغّص على أهل الشهوات مسلكهم، وعلى أهل الفساد مسيرتهم، وهذا ما يجعل أهل الربا والاحتكار يكيدون له، إذ يُريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل. ويجعل أصحاب الشهوات يُحاربونه إذ ينتهكون الحرمات، ولا يُبالون بأعراض الآخرين، ويُشجّعون الزنا لتحقيق شهواتهم، ويبغون في الأرض الفساد.

٣ ـ الطغيان:

يعمل الطغاة على إذلال المجتمع، فيضغطون على الحريات، ويكبحون كل صوتٍ، ويطلبون من الناس التزلّف، وإعلان الخضوع، وقول غير الحق عنهم، والمؤمن أبيّ، لا يُنكّس لطاغيةٍ رأساً، ولا يذلّ لجبارٍ نفساً، وهذا ما يهدّ كيان الطغاة، ويُزعج الظالمين فيُعلنون الحرب على المؤمنين بالقهر، والضغط، والسجن، والتشريد، والخلاص منهم ـ إن تمكّنوا ـ.

٤ ـ الأعداء:

يعمل الأعداء في الخارج على محاربة الإسلام للنيل من أهله، ومن العقيدة بالدرجة الأولى لمخالفتهم لها، وحقدهم عليها، وفي سبيل إذلال المسلمين وإضعافهم ليكونوا تبعاً لهم، ومن أجل السيطرة على ديار الإسلام لنهب خيراتها، وأخذ ثرواتها لرفع مستوى أبنائهم المعاشي، ولتحسين الوضع الاقتصادي في دول الأعداء، وفي الوقت نفسه لإفقار المسلمين وجعلهم يسيرون في فلك الدول الكبرى وفي ركابها.

وأكبر عقبةٍ تجدها الدول الكبرى أمامها أن المؤمنين هم الذين يدعون إلى جهاد الأعداء، وبناء النفس المجاهدة، والعقل المجاهد، ويرفضون الحوار مع

الأعداء، والتبعية لهم، والسير في ركابهم، ولا تُجدي مع هؤلاء المؤمنين إغراءات الدول الكبرى، ومُحاولة إغوائهم، والعمل على شرائهم للسير معهم رغم مُغريات العروض.

وما دام المؤمنون قد وقفوا في وجه الفساد، وأمام أصحاب الشهوات، وكانوا حرباً على الطغيان، وحاجزاً أمام سيطرة الأعداء ودخولهم البلاد، وسدّاً أمام أعوان الأعداء، لذا فقد وُجّهت التهم للمؤمنين، ووضعت الافتراءات عليهم، ورُوّجت الأقاويل عنهم، فاتهموا بالتخلّف، والجمود، والرجعية، والإرهاب و . . .

ونُصبت لهم الفخاخ، ووضعت المخططات والحيل، وحيكت الحبائل، وجعلت المصايد لإيقاعهم، وكان أهم المغريات ـ كما ذكرنا ـ المناصب، والمال، والجنس، وما أصعب الإغراءات، وما أشد الإغواء، وما أقذر أساليب الأعداء حيث يكون معها جند إبليس وبتخطيطٍ من شياطين الجنّ والإنس، الذين يُرافقون الجنس المعدّ للغواية، والمكلّف بالإغراء، فلا ينجو منها إلا المؤمن الصادق.

ومن يرد النظرة الشاملة إلى رحلة الحياة، وكأنه ينظر إلى البشر على الأرض من أعلى، فما عليه إلا أن يأخذ وعاءً زجاجياً كبيراً ويملؤه بماءٍ آسنٍ، وينظر إليه بمجهرٍ ضخم فيرى تلك المخلوقات الصغيرة تزدحم في الماء بعضها يتسلّط على بعضها الآخر، ومنها من يعتدي على

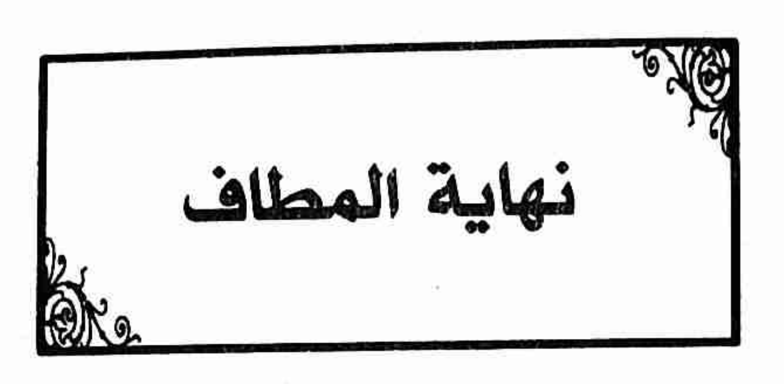
غيره، ومن يسعى وراء أنثى، ومن يبحث عن غذاء، ومن يفتش عن ملاذٍ. وهكذا دنيا الناس.

وكما في ماء الوعاء كذلك في ماء البحر، وعلى اليابس، وفي الجو... ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[1].

تكالب على الحياة الدنيا وزينتها، وجشع على جمع المال، وسعي وراء شهوات النفس. وبين هذا أخيار يعملون صادقين لإرضاء ربهم وطاعته.



(١) سورة الأنعام: الآية ٣٨.



نهاية المطاف

ينتهي المطاف فجأةً، ويحطّ الركب، وتُحلّ عقد الرحال، ويغطّ التجار المسافرون في نوم عميقٍ، وتتوالى الأرتال، ركب يعقب ركباً، ينتهي به الطريق، ويغطّ في نومٍ كسابقه. وبعض أفراد الركب يأخذ العبرة من سابقه فيستفيدَ موعظةً، ويستقيم في مسلكه، وبعضهم الآخر لم ينتبه إلى سلفه، ولم يُبال بما وقع تحت ناظره، ولا بما جرى تحت سمعه، فيستمر في غيّه، ويتابع مسلكه حتى يصل إلى نهاية الطريق. وينتهي عن الأرض.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة الزمر: الآيات ٦٨ ـ ٧٠.

وينهض الخلق جميعاً من رقدتهم مذعورين بعد أن صعقتهم النفخة، يخرجون بذلّة، قلوبهم واجفة، هائمين على وجوههم كأنهم سكارى، وما هم بسكارى، ولكثرتهم كأنهم جراد منتشر، إذ خرج كل من سار في هذه الرحلات المتتابعة منذ النشأة الأولى، يوم خلق الله آدم، حتى انتهت الحياة عن الأرض ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾[1]. ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾[2].

يخرجون من الأجداث لا يُبالي أحد بآخر، ولا يهتمّ إنسان بأقرب الناس إليه حتى تذهل المرضعة عن رضيعها، ويبتعد الأب عن ابنه، كل يُفكّر في شأنه، يُلهيه ما هو فيه، ويُشغله هول الموقف ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾[3] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾[4].

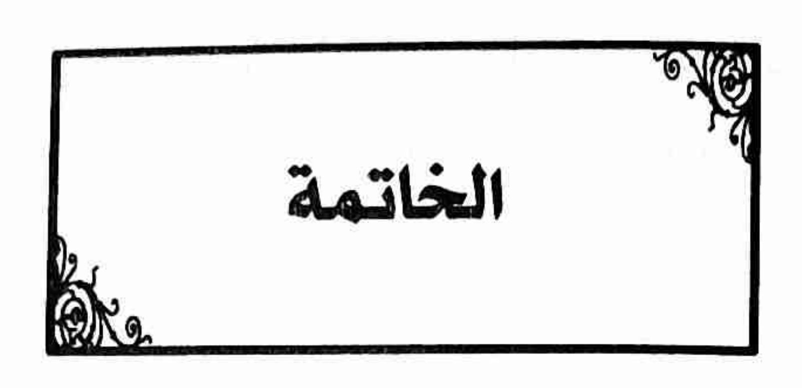
---

(١) سورة القمر: الآية ٧.
(٢) سورة المعارج: الآيات ٤٢ ـ ٤٤.
(٣) سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٧.
(٤) سورة الحج: الآية ٢.

إنه لموقف عصيب أن يحاول المخلوق أن يستجمع في رحلته ما قدّم، وما حصل عليه من أجرٍ، وما جنى من ربحٍ، وما أخذ، وما لحقه من خسارةٍ، وما تجاوز فيه الحدّ وعصى، وما تقيّد فيه وأطاع، وما غلبته نفسه في هواها، وقهرته وراء شهوتها فانصاع لها، وحقّق لها ما وقع فيه، ولكن لا يذكر إلا قليلاً، وإن كان يتذكرّ بعض ما أحسن فيه، ومنهم من يتذكّر كبائر الإثم والفواحش فيتمنّى ويتمنّى، ويقول: يا ليتني... ويا ليتني. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[1]. وإنه لموقف عصيب وشدّة غامرة تُلقي بالرعب، ويطفح منها غليان النفوس، وتحرّق الأكباد، وما لا يمكن وصفه، فهذا كلام العاجز، وقول الحياة الدنيا، ومنطق القلم، أما ساعتذاك فالهول شديد شديد، نهاية المطاف، ووقت الحساب، وأمر الله، وحكم العزيز الجبار، خالق السموات والأرض، وقوله الحق، يوم الخوف والرهبة، يوم تذهل كل مرضعةٍ عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها، الأبصار خاشعة، والقلوب واجفة، والنفوس ذاهلة... وكل ينتظر حساب تجارته في دنياه الفانية.

---

(١) سورة الفرقان: الآيات ٢٧ ـ ٢٩.



الخاتمة

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وشخصت الأبصار، وخشعت الأصوات، وأوتي كل إنسانٍ كتاباً فأخذ ينظر فيه، فمن ظلم وطغى، وأفسد وبغى، وانتهك الأعراض، وأعمل لسانه بالحرمات، وعاث في الأرض الفساد، ولم يخش الله، ولم يؤدّ ما افترض عليه، وما أُمر به، فقد أوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره، واعتصرت نفسه «يا ويلتي لم يترك هذا الكتاب صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، يا ويلتي إن أشياء كثيرة وجدتها كنت قد عملتها، ولكنني نسيتها، حقاً ارتكبتها، يا ويلتي ماذا أفعل؟ لقد وقعت، ليتني تذكّرت ربي، ليتني لم أعصه، ليتني لم أُطع فلاناً، ليتني سمعت من فلانٍ، ليتني لم أفعل كذا وكذا».

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

ويتذكّر الجبابرة، والطغاة، والظالمون، والذين أسرفوا على أنفسهم ما كانوا عليه في دنياهم الفانية، ورحلتهم فيها، وزينتها، وقد خلّفوها وراءهم.. أين المال؟ أين العزّ والسلطان؟ أين الجند والأعوان؟ ذهب هذا كله... ليس في الميزان إلا ما عملت. ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾[1]. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩)﴾[2].

وأما من أوتي كتابه بيمينه فقد غلب عليه الفرح، وطفح على وجهه السرور، وشعر بالسعادة التي ما بعدها سعادة، ورفع كتابه: «اقرؤوا ما فيه، لقد كنت مؤمناً بهذا اليوم، مؤمناً بلقاء ربي، يا فوزاه» ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ (١٩) إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (٢٤)﴾[3].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٩.
(٢) سورة الحاقة: الآيات ٢٥ ـ ٢٩.
(٣) سورة الحاقة: الآيات ١٩ ـ ٢٤.

وسُحب الذين أخذوا كتابهم بشمائلهم أو من وراء ظهورهم - إلا من نالته رحمة من الله ومغفرة لعملٍ قام به أو خيرِ عمله - سُحبوا إلى جهنم، وأسعروا فيها ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

وسيق الذين أوتوا الكتاب بأيمانهم يغمرهم الفرح، ويتلقّون البشرى من الملائكة، ويشعرون بالفوز العظيم، سيقوا إلى الجنة ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[2].

هذه نتائج رحلة الحياة فريق في الجنة وفريق في

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ٧١ - ٧٢.

(٢) سورة الزمر: الآيات ٧٣ - ٧٥.

السعير خالدين فيها أبداً ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك.

نرجو من الله المنّان الكريم أن يَمُنّ علينا، فيُجنبنا النار، ويُكرمنا بالجنّة، وذلك الفوز العظيم، وتلك المنّة الكبرى، والربح الوفير، فما بعد ذلك مِنّة، ولا فوز، ولا ربح.

إنه نتائج أعمالنا، وما جنته أيدينا، وما حصدته ألسنتنا، وما هويته نفوسنا. فإلى الله الملجأ، وإليه المرجع والمآب. ولا حول ولا قوة إلا بالله.



المحتوى

الموضوع	الصفحة

من يرد النظرة الشاملة إلى رحلة الحياة، وكأنه ينظر إلى البشر على الأرض من أعلى، فما عليه إلا أن يأخذ وعاءً زجاجياً ويملؤه بماء آسن وينظر إليه بمجهر ضخم فيرى تلك المخلوقات الصغيرة تزدحم في الماء بعضها يتسلط على بعضها الآخر، ومنها من يعتدي على غيره ومن يسعى وراء أنثى، ومن يبحث عن غذاء، ومن يفتش عن ملاذ، وهكذا دنيا الناس.

إنها رحلة نتائجها فريق في الجنة وفريق في السعير، فالسعيد من ظفر بالفوز العظيم والمنة الكبرى والربح الوفير.